الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

الإطـــار القـــانـــوني للإنـتـخـــاب وأثـــره على الإرادة الـــشعبيـــة

(٣-٣)

القاضي قاسم حسن العبودي

أشرنا في مقدمة البحث الى تأثير النظام الانتخابي على الانظمة الحزبية ، وأنه يقوم بدور كبير في صياغة الانظمة الحزبية في بلد ما ، فقد ساهم نظام الاغلبية في تشكيل ثنائية حزبية في كل من الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا ، ففي كلا البلدين حزبان كبيران عادة مايكون أحدهما في السلطة والآخر في المعارضة ، بينما أدى تبني نظام التمثيل النسبي والانتخابات غير المباشرة في زيادة عدد الكتل الحزبية الموجودة في المجالس التمثيلية.
وأدى ذلك الى اتساع نطاق المشاركة في صنع القرار السياسي وإضعافه في ذات الوقت ، حيث غالباً ما لا يتمكن حزب او كيان سياسي من تشكيل الحكومة بمفرده ، ما يضطر الى التحالف او الائتلاف مع حزب او احزاب اخرى برغم اختلافه معها في الأيدولوجيا والمشروع السياسي ما ينعكس هذا الاختلاف على اداء الحكومات الناتجة عن هذا النظام.

أثر النظام الانتخابي على التجربة الحزبية

وعادةً ماتنهار هذه الحكومات قبل مدة ولايتها وهو ما حدث أكثر من مرة في ايطاليا واسبانيا وتركيا، ويدعى الناخبون الى انتخابات مبكرة ، الا إن لهذه الدول مؤسسات عتيدة لاينعكس عليها بشكل كبير ضعف الاداء الحكومي ، كما ان الانتخابات غير المباشرة على خلاف الانتخابات المباشرة تفسح المجال أمام التحالفات السياسية المبنية على المساومة واقتسام المكاسب.

أثر النظام الانتخابي على شكل الدولة

و يمارس النظام الانتخابي ايضاً دورا كبيرا في اعادة صياغة شكل الدولة وفقاً لارادة النظام السياسي فيما اذا كان متجهاً نحو مزيد من السلطة والمركزية للحكومة الاتحادية او مزيد من نقل الصلاحيات وتقاسم السلطة الى الاقاليم او الولايات في ظل النظام الاتحادي، فقد أدى تبني نظام الاغلبية (الفائز الاول) في الولايات المتحدة الامريكية الى تعزيز سلطة الدولة والحكومة الاتحادية، ونجح الحزبان الكبيران الجمهوري والديمقراطي في استقطاب مختلف فئات وشرائح المجتمع الامريكي ، وفي نفس الوقت نجح في استقطاب المصالح الاقتصادية الكبيرة وأتاح ذلك الهيمنة على الرئاسة والكونكرس، وتعاقب الحزبان في إدارة البيت الابيض ما أدى الى إحالة مجلس الشيوخ من تمثيل مناطقي الى تمثيل حزبي وطني بسبب التجربة الحزبية ، فإن هذا المجلس عادة ما تتمثل فيه الولايات بشكل متساو اذ يمثل كل ولاية في مجلس الشيوخ شخصيا فقط ، لكن التجربة الحزبية أحالت ذلك التمثيل من تمثيل مناطقي الى تمثيل حزبي وطني، وانعكس ذلك بدوره على التشريعات الصادرة من الكونكرس والتي تبرز اتجاه الولايات المتحدة الامريكية الى مزيد من الاندماج والوحدة، وهو ما يحدث الى حد كبير في استراليا.

ان هذا النجاح الذي حققته التجربة الحزبية يكمن في إزالة الحساسية بين مكونات المجتمع الامريكية المختلفة فلم يعد مهماً لدى الفرد شكل الدولة سواءً كان بسيطاً أم مركباً.

وفي البرازيل يجري تقسيم الدولة الاتحادية الى عدد من الدوائر تماثل عدد الولايات باعتبار أن كل ولاية دائرة انتخابية ، لأغراض انتخاب أعضاء مجلس النواب البالغ عددهم ٥١٣ نائباً، وحسب الكثافة السكانية لكل ولاية . على أن ذلك التمثيل ينحصر بين حدين؛ الحد الادنى ثمانية نواب ، والحد الاعلى سبعون نائباً.

إن عملية التحديد هذه جعلت ساوباولو الاكثر سكاناً والاكثر غنىً تخسر أربعين مقعداً ،كان يمكنها الحصول عليه لولم يحدد التمثيل بالطريقة التي ذكرناها ، بينما يعود هذا النظام بالنفع على الولايات الصغيرة قليلة السكان ويمنحها فرصة أكبر للإسهام والمشاركة في صنع القرار السياسي، والذي كان تحتكره ولاية ساوباولو في الفترة ما بين العامين ١٨٩٩-١٩٣٠ وهي الحقبة المعروفة بالجمهورية الاولى ، وان هذه الترتيبات تظهر قلق المشرعين البرازيليين حيال هيمنة الحكومة المركزية وضرورة نقل بعض الصلاحيات والسلطات الى الولايات.

بينما يلاحظ أن تبني الاتحاد السويسري لنظام التمثيل النسبي قد ساهم في وجود أربع احزاب سويسرية في الهيئة التشريعية هم كل من الحزب الاشتراكي السويسري والحزب الراديكالي الديمقراطي والحزب الديمقراطي المسيحي والاتحاد الديمقراطي الوسط ، ويتعاقب ممثلو الاحزاب الأربعة على رئاسة الحكومة المشكّلة من سبعة أشخاص سنويا.

إلا أن النظام الانتخابي وشكله لم يؤثر في نموذجين فيدراليين آخرين ، هما كندا وجنوب أفريقيا ، اذ ان نظام الفائز الاول لم يكرس التجربة الحزبية في كندا ، كما ان نظام التمثيل النسبي لم يعزز التعددية الحزبية في جنوب افريقيا ، ويعزى ذلك - في رأيي - الى تشكيلة الهيئة التشريعية في كندا ، اذ ان المجلس الثاني (مجلس الشيوخ) في كندا لا يتم فيه اختيار الأعضاء عن طريق الانتخاب، وإنما يتم تعيينهم بواسطة السلطات التنفيذية في الولايات وهي أحرص ما تكون على تغليب الخصوصية المحلية على المصالح الوطنية للدولة الاتحادية.

أما في جنوب أفريقيا فقد شهدت نظاما دكتاتوريا عمل على تهميش غالبية الشعب من السود ما أحدث تحولاً كبيراً جعل هذه الاغلبية تتمحور بشكل كبير حول قيادتها التقليدية المتمثلة بحزب المؤتمر الوطني الافريقي الذي كان يرأسه نلسون مانديلا ، بينما استأثرت بقايا نظام بروتليا العنصري على تأييد الأقلية من البيض ، وحتماً ستشهد هذه التجربة الفتية ظهور كتل حزبية جديدة يساعدها في ذلك نظام التمثيل النسبي المتبع هناك.

ولا يفوتني ان اذكر ان بعض الاكاديميين المتخصصين في النظم الانتخابية ينتقدون طريقة تقسيم الدوائر في ظل النظام الاتحادي كونها لا تمثل عدالة في التمثيل ولاتعكس الاهمية العددية في الوحدات المكونة للاتحاد الفيدرالي لانه غالباً ما تتساوى الولايات في عدد الممثلين داخل مجلس الشيوخ او مجلس الولايات والاقاليم بغض النظر عن كثافتها السكانية ، اذ يتمثل كل كانتون في سويسرا بنائبين في المجلس الاعلى (مجلس الشيوخ) وممثل واحد لكل نصف كانتون، علماً ان كانتون بيرن يقطنه اكثر من مليون نسمة بينما لايتجاوز عدد السكان في كانتون آخر على عشرين الف نسمة ..كما يمثل كل ولاية شيخان في مجلس الشيوخ الامريكي.

الا انه لايمكن دراسة النظام الانتخابي بمعزل عن المنظومة الديمقراطية للدولة الاتحادية فقد شهد المفهوم الديمقراطي في ظل الدولة الاتحادية تغليباً لمفهوم المشاركة في صنع القرار السياسي، يضع الوحدات الصغيرة في درجة مساوية الى حد كبير في صنع القرارات والتشريعات الفدرالية .

وبإمكاننا ان نفهم ذلك اكثر عن طريق استقراء النصوص المتعلقة بذلك في الدساتير الفدرالية فقد نص الدستور السويسري على ضرورة استحصال التشريعات على الأغلبية المركبة ، أي أغلبية الشعب السويسري من جهة واغلبية الكانتونات من جهة أخرى، أي أغلبية شعب الدولة الاتحادية وموافقة (١٤) كانتوناً من أصل (٢٦) كانتوناً المكونة للاتحاد السويسري.

وكذلك نص الدستور الأمريكي على أن أي تعديل يجب أن يحظى بموافقة ثلاثة أرباع الهيئات التشريعية للولايات الأمريكية، وذلك على خلفية نشوء الاتحاد الأمريكي الذي نشأ عن اتحاد عدد من الدويلات المستقلة.

وما يعزز رأينا هذا في عدم امكانية اخضاع

النموذج الفيدرالي للمفهوم التقليدي للديمقراطية هو خضوعه لبعض التدابير غير المتناسقة في سبيل احتواء نزعة الانفصال ، وفي نفس السياق لاتتساوى الوحدات المكونة في التمثيل داخل مجلس الشيوخ في بعض النماذج الفيدرالية، ففي المانيا يمثل كل ولاية ثلاثة مندوبين على الاقل، ولكل ولاية يزيد عدد سكانها على مليونين فلها أربعة مندوبين والولاية التي يزيد عدد سكانها عن ستة ملايين يكون لها خمسة مندوبين (المادة ٥١-فقرة ٢ من دستور المانيا الاتحادية) .

وفي كندا تتمثل المناطق الاربعة الرئيسة في كندا بـ (٢٤) مقعداً لكل منها و يمثل مقاطعة نيوفاولاند (٦) مندوبين ولا يكون لأقاليم السكان الأصليين الا ثلاثة مقاعد.

انتخابات مجالس المحافظات غير المنتظمة بإقليم في العراق

بتاريخ ١٩ /٣ /٢٠٠٨ صادق مجلس الرئاسة على قانون ينص على اجراء انتخابات مجالس المحافظات في موعد اقصاه الاول من تشرين الاول المقبل على ان يشرع مجلس النواب قانون للانتخابات خلال ٩٠ يوماً من صدور القانون المذكور.

وهناك جدل كبير بشأن نوع النظام الانتخابي الواجب تبنية في انتخابات مجالس المحافظات وقد تحدثنا في بداية البحث عن أن تبني أي نظام انتخابي جديد مرتبط بجملة عوامل سياسية وقانونية وفنية ، وحيث ان تقسيم المحافظة الواحدة الى دوائر على مستوى القضاء او الناحية مرهون بالارادة السياسية لحل المشاكل آنفة الذكر في البحث، فإن الخيارات المتاحة لتغير أوتبني نظام جديد تكون محدودة جداً .

وبالرجوع الى انتخابات مجالس المحافظات السابقة تم اعتبار المحافظة دائرة واحدة مع اعتماد نظام القائمة المغلقة ،وكان هذا النظام أسهل للناخب وللاحزاب والكيانات السياسية وكذلك للمفوضية العليا المستقلة للانتخابات في العراق.

وكان معدل الوقت الذي يحتاجه الناخب خلف كابينة الاقتراع هو دقيقة واحدة ، علماً أن عدد الناخبين في كل محطة انتخابية هو بحدود ٥٠٠ ناخب، وكان عدد مرشحي مجلس محافظة بغداد ١٢٠٧ مرشحا يمثلون ٥١ كياناً سياسياً تنافسوا على مقاعد مجلس المحافظة البالغة ٥١ مقعداً ، فلو تم اعتماد القائمة المفتوحة على مستوى المحافظة وهو الخيار المطروح حالياً عند استبعاد الحلول المتعلقة بالاحصاء السكاني وتداخل الاقضية بين المحافظات وتداخل المستفدين من البطاقة التموينة بين المناطق المختلفة، ففي هذه الحالة على الناخب ان يملأ قائمة بستين مرشحاً من بين عدد المرشحين المذكورين، ولنتخيل كم يحتاج الناخب وقتاً خلف كابينة الاقتراع لإتمام عملية التصويت، وكم سيكون هذا الامر مرهقاً للناخبين الذين سيشكلون طوابير طويلة جداً أمام محطات الاقتراع، ولن يكون بالإمكان إتمام عملية الاقتراع في يوم واحد.

علماً إن عامل الوقت عامل حساس وحيوي في شفافية الانتخابات، إضافة لذلك فإن المفوضية العليا المستقلة للانتخابات تحرص على أن تجري انتخابات جميع المحافظات في يوم واحد لكثير من الاعتبارات المتعلقة بظروف العراق الاستثنائية.

وإن من المتوقع أن يزداد عدد المرشحين في الانتخابات القادمة كما سيزداد عدد المقاعد، وفقاً لما حدده قانون مجالس المحافظات، حيث من المتوقع أن يكون عدد مقاعد محافظة بغداد ٦٠ مقعداً ، هذا بالاضافة الى الاشكالات المتعلقة بضمان تمثيل المرأة والاقليات، فاستجابة القائمة المفتوحة لضمان تلك الامور تكون بالتأكيد محدودة المرونة.

النظام الانتخابي المقترح

وفي رأيي أنه إن أريد تبني نظام بديل لانتخابات مجالس المحافظات فيمكن تجاوز هذه المشاكل والتوفيق بين الرغبات المختلفة عن طريق الجمع بين نظامين مختلفين والشكل المقترح للنظام الانتخابي، وذلك عبر الجمع بين نظام التمثيل النسبي ونظام الاغلبية المتعددة (الفائز الاول) باعتبار كل محافظة دائرة واحدة، وعلى النحو التالي:

تقدم الاحزاب والكتل السياسية قوائم بأسماء مرشحيها للمقاعد المخصصة لمجلس المحافظة ويقترع الناخب بأن يختار أولاً الحزب المفضل لديه ويصوت لمرشح واحد داخل قائمة هذا الحزب، وبعد الانتهاء من عملية التصويت والانتهاء من العمليات الاولية الخاصة بمعرفة الحدّ الطبيعي (العتبة) - وهو حاصل قسمة الاصوات الصحيحة على عدد المقاعد المخصصة لمجلس المحافظة - يتم احتساب نسبة الاصوات التي حصل عليها كل حزب أوكيان سياسي، فلو حصل الحزب على ٢٠٪ من الاصوات يحصل على ٢٠٪ من المقاعد، على أن توزيع هذه المقاعد على مرشح هذا الحزب يتم عن طريق نظام الاغلبية وفق ما حصل عليه كل مرشح.

هنا يمكن تصور أن يحظى بعض المرشحين داخل القائمة على أغلبية الاصوات بما يتجاوز العتبة فيصار تحويل الاصوات الفائضة الى مرشحين بنفس القائمة وحسب نظام الاغلبية.

أما عن ضمان نسبة تمثيل النساء فهناك خياران لضمان تلك النسبة:

الاول عن طريق حجز مانسبة ٢٥٪ من المقاعد (الكوته).

الثاني هو ان يتم استبدال الربع الاخير من المرشحين الفائزين في القوائم والذين حصلوا على اقل الاصوات بالنساء اللاتي حصلن على أعلى اصوات من دون ان يبلغن العتبة.

ويمكن تصميم ورقة الاقتراع بأحد الشكلين الآتيين:

الاول أن تكون ورقة الاقتراع على شكل كرّاس ، كل ورقة منه تتعلق بحزب يضم إسم الحزب وشعاره وأرقام وأسماء المرشحين.

الثاني أن تكون ورقة الاقتراع كتلك التي تم اعتمادها في الانتخابات السابقة ويذكر فيها اسم كل حزب وشعاره ، وتحت الاسم مربعات صغيرة تحتوي على ارقام كل رقم منها يمثل أحد المرشحين.

وهناك نوع من التوافق لدى الكيانات السياسية في تبني هذا النظام لانتخابات مجالس المحافظات التي ستجري في أكتوبر- تشرين الأول المقبل، على أنه يجب ملاحظة التسمية المتداولة لدى الكيانات السياسية وفي مسودة القانون المقترح لدى الحكومة وهي (الصوت الواحد غير المتحول) .. إن هذه التسمية غير دقيقة لشكل النظام الانتخابي الذي شرحناه آنفاً لأن نظام الصوت الواحد غير المتحول يختلف عن هذا النظام.

مزايا وعيوب النظام المقترح

ان أهم مزايا هذا النظام المقترح لانتخابات مجالس المحافظات هو تمكين الناخب من التصويت لمرشح واحد في القائمة ومن دون مراعاة للترتيب الذي وضعه الكيان السياسي، وهنا تظهر إرادة الناخبين في اعادة ترتيب المرشحين حسب استحقاقاتهم وحسب الاصوات التي سيحصلون عليها.

كما ان هذا النظام يحفظ قدراً كبيراً من النسبية يساعد على تلافي عيوب الدوائر أحادية التمثيل ، فهو أكثر سهولة مقارنة بالقائمة المفتوحة من حيث الوقت الذي يحتاجه الناخب ومن حيث العد والفرز وكذلك بالنسبة للقضايا اللوجستية الخاصة بمواد الاقتراع..

أما عيوب هذا النظام فتتمثل في كونه لايمثل قدراً كبيراً من العدالة في توزيع المقاعد داخل القائمة الواحدة، فقد يكون هنالك فارق كبير بين المرشحين داخل القائمة ، وخاصة اذا ركز الناخبون على بعض المرشحين داخل القائمة ما يجعله أقرب الى القائمة المغلقة ، حيث تتوزع الأصوات الفائضة لأحد المرشحين على زملائه الآخرين في نفس القائمة، وهذا يؤدي الى فوز بعض المرشحين بأصوات لم يستحقوها.

واذا كان من الممكن حل مشكلة تمثيل المرأة بالطرق التي ذكرناها فإن هناك مشكلة أخرى تبقى قائمة ، وهي مشكلة الأقليات حيث لاتتوفر قاعدة بيانات بعددهم ومناطق تواجدهم، ولحلّ هذه القضية شكل مجلس النواب لجنة من ممثلي الاقليات فيه، لغرض وضع دراسة بهذا لخصوص.

علماً ان قضية تمثيل الأقليات تكون أكثر تعقيداً في ظل الدوائر المتوسطة عما هو عليه في الدوائر الصغيرة أحادية التمثيل أو الدائرة الكبرى التي تعتبر إقليم الدولة دائرة واحدة ، حيث تُحل هذه المشكلة.

وفي النهاية ينصح المتخصصون في الانظمة الانتخابية بأن لايتم الانتقال من نظام الى نظام آخر مختلف تماماً ، وإن عملية التدرج في تبني الانظمة عملية مهمة جداً تأخذ بنظر الاعتبار وعي الناخب وطبيعة النظام السياسي وطبيعة المجتمع.

صنـــاعـــة الـــوهـــم في الإعجـــاز العلـمـي

مهدي النجار
كاتب

كلاهما (التخلف والوهم) في علاقة ترابط متينة،يتعايشان معا واحدهما ينتج الثاني فالتخلف على جميع مستوياته: الاقتصادية والسياسية والثقافية، ينتج الوهم بمستويات العلاقات الاجتماعية وبمستويات طرح الاسئلة الكبيرة المتعلقة بتطورتلك المجتمعات ومتطلبات حياتها المعاصرة كذلك بمستوى طرح الحلول والاجابة عليها. وبالمثل يقوم الوهم كواحد من العوامل المهمة التي تنتج التخلف وتعيد انتاجه، لذا تظل المجتمعات العالقة بين هذه الثنائية (ثنائية التخلف والوهم) في حالة تأزم دائمية لاتستطيع ان تسير مثلما تسير بقية الامم والشعوب في اتجاهات تاريخية الى الامام، وكلما تستطيع ان تفعله هو ان تنكفئ على نفسها وتنحو بسيرها الى الخلف وتستقر في تلك الازمان الغابرة، البدائية، الداكنة وتعيد اجترار موروثاتها وصفحات تاريخها المندرس كل يوم على انه جديد ومعاصر. فلولا مظاهر التخلف القاسية التي تحيق بالمجتمعات الاسلامية (مظاهر: الفقر /الامية/ البطالة/ الاقتصاد الرث والتنمية المشوهة/القمع وانعدام الحريات/ الغاء دور النساء....) لما تصاعدت وتائر انتاج الاعجاز العلمي (في القرآن والسنة) بهذه السرعة المقلقة، خاصة في العقود الاربعة الاخيرة وبالتالي تصبح ثقافة الاعجاز في مجتمع الاميين والاميات ظاهرة مخيفة تسيطر على الذهنية العامة وتتحكم بها، تزرع في نفوسهم ازدراء العلم والتنكيل باهله، تزرع الاتكالية والكسل واللامبالات بذريعة الدفاع عن بيضة الاسلام والجهاد من اجل اعلاء شأنه والكد ليل نهار في زج الدين بمجالات العلم المتقلبة، مثلما تفعل ثقافة العنف بعقل الناس (خاصة الشبيبة) حين تزرع في نفوس اليائسين والعاطلين والمتذمرين الضغينة والحقد والبغضاء وتدفعهم الى قتل عشوائي حافل بالبشاعات، تدفعهم الى هاويات الانتحار وتفجير انفسهم في الاوساط المدنية معتمدة على نفس تلك الذرائع وعاكفة على زج الدين في السياسة. فاذا كانت ثقافة الاعجاز تصنع الوهم فثقافة العنف تصنع الموت وكلاهما يشكلان كابحاً قوياً في طريق نماء المجتمعات الاسلامية وتطورها ورقيها، وفي نفس الوقت يزدهران وينتعشان في بيئات التخلف والالتباسات الذهنية.

يكرس الكاتبون والمهتمون بشأن الاعجاز العلمي في القرآن جلّ اهتمامهم وآرائهم وكتاباتهم لدعم وتأكيد مسألة اساسية ومحورية مفادها: ان الكتاب التأسيسي للدين الاسلامي (اي القرآن) يضم بين صفحاته كل ما حققته الانسانية عبر تاريخها الصعب الطويل (وما ستحققه مستقبلاً) من كشوفات وانجازات ونظريات علمية وعلى كل الصعد وفي المجالات كافة، الانسان/ الكون/ الفلك/ الفيزياء/ الكيمياء/ الهندسة/ الطب/ الذرة....الخ. ويزعم الاعجازيون ان اسلوب القرآن يختلف عن كل الاساليب فهو حينما يشير الى مسألة علمية كما يقول مصطفى محمود: (يقدمها بالاشارة والرمز والمجاز والاستعارة واللمحة الخاطفة والعبارة التي تومض كبرق خاطف)(محاولة لفهم عصري للقرآن/بيروت١٩٧٠) وعن طريق فك هذه الاشارات والرموز والمجازات نتمكن من العثور على الاعجازات العلمية مثل نظرية دارون وكيفية خلق الانسان وتطوره من الامبيا الى الاسفنج الى الحيوانات الرخوية...، والمنهج الاستقرائي الذي جاء به (باكون) من الآية التي تقول:(وقل سيروا في الأرض). والأسفه من ذلك يشوه اصحاب الكفاءات الاعجازية القانون الالهي الشفاف الذي يصلح لكل مكان ولكل زمان وقد وردَ باختصار مُتقن وببلاغة فريدة. القانون القائل: (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) فيذهبون الى استنتاج (علم الذرة) من الآية تلك والطائرات النفاثة من الآية: (والمرسلات عرفًا ❖فالعاصفات عصفاً❖والناشرات نشراً) (المصدر المذكور/مصطفى محمود)كذلك علم صناعة السفن والكهرباء والطاقة ويكتشف الاعجازيون كروية الارض في الآية التي تقول: (خلق السماوات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار) الزمر:٥ حيث يستنتج الجهبذ الشيخ زغلول من خلال مقال طويل ما مفاده: (لما كان القرآن الكريم يثبت ان الله يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وهما فترتان زمنيتان تعتريان الارض فلابد للارض من ان تكون مكورة، ولابد لها من الدوران حول محورها امام الشمس) انظر كتابات الهيئة العالمية للاعجاز العلمي في القرآن والسنة على موقع الشيخ زغلول (www.elnaggarzr.com)لا ندري ما علاقة كروية الارض ودوران الشمس بهذه الظاهرة الكونية التي يتحدث عنها القرآن الكريم ببيان واضح ليدلل على قدرة الباري جل وعلا في خلق السماوات والارض بالحق!! ومن الطريف ان نستعرض اعجازاً آخر في نفس الموقع حول سورة (الطارق) حيث دأب رب العزة ان يُقسم بالسماء والارض والظواهر الطبيعية في كثير من سور القرآن، فنجده هنا يقول: (والسماء ذات الرجع❖والارض ذات الصدع❖ انه لقولٌ فصلٌ❖وما هو بالهزل❖انهم يكيدون كيداً❖وأكيد كيداً❖فمهل الكافرين أمهلهم رويدا). هذه الآية الكريمة ذات معنى واضح لا لبس فيه ولا غموض، يقسم الله بالسماء ذات الرجع اي السماء ذات المطر لرجوعه الى الارض ثانية) وبالارض ذات الصدع اي النبات الذي تنشق عنه) بأنه اي سبحانه وتعالى) سوف يمهل الكافرين ولا يستعجل بالانتقام منهم ثم ياتيهم العذاب قريباً او بعد قليل. يجتزيء الشيخ زغلول مقطعاً من هذه السورة الكريمة : (والسماء ذات الرجع) ويفصله بتعسف عن سياق النص ويقوم ببناء اطروحته الاعجازية الطويلة، ناتفاً من هنا ومن هناك وصلات علمية تبهر المغفلين، سرقها من الكتب المتخصصة وقام بحشرها في سياق شرحه لمعنى هذه الآية ويستعرض صوراً مضحكة من صور رجع السماء: الرجع الاهتزازي للهواء/ الرجع المائي/ الرجع الحراري الى الارض وعنها الى الفضاء بواسطة السحب/ رجع الغازات والابخرة والغبار المرتفع من سطح الارض/ الرجع الخارجي للاشعة فوق البنفسجية بواسطة طبقة الاوزون/ رجع الموجات الراديوية بواسطة النطاق المتأين / رجع الاشعة الكونية بواسطة كل من احزمة الاشعاع والنطاق المغناطيسي للارض...ويستنتج بسذاجة مفرطة هذا الشيخ الجهبذ: (ان وصف السماء بانها ذات رجع) في القرآن الكريم من قبل الف واربعمائة من السنين يجمع كل هذه الصور التي نعرفها اليوم وربما العديد من الصور التي لم نعرفها بعد في كلمة واحدة وهي الرجع(ساعدك الله يا امة الاسلام على هكذا علماء يجيدون الشعوذة والتلاعب بالالفظ ولهم مهارات فائقة في السرقات الاعجازية وفي حشو الكلام!! سبحانه القائل: "قُل يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم غير الحق) المائدة:٧٧ .

ان استفهاماً واحداً نطرحه على هؤلاء الاعجازيين المتعلمنين، هذا الاستفهام لا يخطر على بالهم ولا يريدون التعرض له لان من الصعب الاجابة عليه. يقول الاستفهام: اذا صح ذلك ووجدت مثل تلك (الاشارات) العلمية في القرآن، فلم لا يتم اكتشافها واستنباطها من قبلكم وانتم قراء القرآن واهله ومفسروه وتعرفون كل شاردة وواردة فيه قبل ان يكتشفها الغير من اتباع الديانات الاخرى واللادينيين وهم الذين لا يعرفون لغة القرآن ولم يقرأوه، اكتشفوها بعد عناء طويل بواسطة مراصدهم ومختبراتهم وتحليلاتهم وصراعاتهم النظرية؟!! ولكنه اعجاز في السرقات العلمية، سرقة جهود الغير وتبخيس الناس اشياءهم، من جهة ثانية ، ماذا قدم الاعجازيون للبشرية في كل تاريخهم الطويل غير هذه السماجات التي لا تنتهي، فاذا استثنينا النفط والكافيار بيض السمك) والسجاد الايراني والافيون الافغاني فان الدول الاعضاء ٥٦ دولة) في منظمة المؤتمر الاسلامي لا تقدم شيئاً للسوق العالمية وان من بين منتجات الدرجة الاولى المميزة الخمسة آلاف في العالم لاتنتج واحدة في بلد اسلامي،وبصدد التعليم فقد نالت جامعة واحدة فقط في بلدان العالم الاسلامي موقعاً على قائمة تتالف من ٣٠٠٠ جامعة مرموقة على امتداد العالم وقد جاء ترتيبها في آخر القائمة!! فأهل الاعجاز هم أنفسهم عالة على منجزات وصناعات الآخرين ابتداء من اصغر الاشياء كقدح الشاي والملعقة وفرشاة الاسنان والملابس الداخلية والخارجية الى الاشياء الكبيرة كالسيارات والطائرات والحاسوبات والجرارت ومكيفات التبريد...!!.

ان القرآن الكريم قبل كل شيء آخر هو كتاب دين، كتاب تبشير وإرشاد ونصيحة وحكمة: "هذا بيانٌ للناس وهُدى وموعظةٌ للمتقين" وكل ما جاء به من نصوص متعلقة بمفهوم البناء الكوني انما جاء في معرض التدليل على القدرة الالهية لرب الدين الجديد، بمعنى ان القرآن لم يُخلق لارساخ قواعد علم اللغة او النفس او الفلسفة او الفيزياء او الكيمياء او الهندسة او الطب، بل لتذكير المخلوق بالخالق وجعل الطبيعة النجوم، القمر، النور،الارض، الحيوانات،النباتات،الامطار، الصواعق...) دليلاً رمزياً على ابداع الله وقدرته.ما انفك الخطاب الالهي على طول صفحات القرآن وعرضها ومن اولها الى آخرها، يورد الآيات المستلهمة من الطبيعة والحياة والظواهر الكونية تلو الآيات لتذكير الناس بعظمة الخالق ووحدانيته: (خلق السماوات والارض بالحق/الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها/ وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى/ وسخر لكم الليل والنهار/ وعلامات وبالنجوم يهتدون/ وهو الذي مدّ الارض وجعل فيها رواسي وانهار ومن كل الثمرات/خلق الانسان من نطفة/ والانعام خلقها/ هو الذي انزل من السماء ماءً ينبت لكم به الزرع والزيتون/ وهو الذي سخر البحر/...) وبعد كل هذه الآيات والشواهد المكررة، يتساءل: (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) النحل:١٧ .

إلا ان اهل الاعجاز العلمي يحرفون تلك الآيات عن معانيها وسياقاتها النصية والتاريخية ويسرحون في خيال علمي هش وبذا يفترون على كلام الله الكذب : (إن الذين يفترون على الله الكذبَ لا يفلحونَ) النحل:١١٦ ويختلف العلم مع القرآن من ناحية المنهج اختلافاً حاداً وجذرياً، من حيث ان الاول اي العلم) ذات منهج استقرائي وتجريبي واختباري يتعرض بين فترة واخرى للاخطاء والتصويبات والتراجعات ويخضع للفحوصات والتساؤلات من اجل ان يتقدم ويتطور، بيد ان الثاني اي القرآن) له منهج ايماني تقريري ثابت لا يقبل المناقشة والتساؤل ويعتمد على التمامية والقطعية والجزم. فعلى سبيل المثال فان المؤمن بالدين الاسلامي لا يمكنه تناول لحم الخنزير حتى لو اكدت كتب الارض العلمية كلها على صلاحية لحمه وفوائده لانه حرم بالنص القرآني، كذلك على المؤمن ان يصدق بقصص اوردها القرآن حتى لو خرجت عن نطاق الواقعي والتاريخي ولا يمكن اثبات صحتها او عدم صحتها مثل قصة اهل الكهف واهل ماجوج وياجوج. انها مسائل تتعلق بالايمان وليس بالعلم ووسائله المعرفية. ومفهوم (العلم)الذي ورد في القرآن الكريم هو واشتقاقاته نحو ٨٨٠ مرة، المراد به العلم الشرعي الذي يفيد معرفة ما يجب على المكلف من أمر عباداته ومعاملاته . والعلم بالله وصفاته . وما يجب له من القيام بأمره . وتنزيهه عن النقائض . ومدار ذلك علم التفسير والحديث والفقه، وحتى (الغيب) الذي نص عليه القرآن هو علم بالمفهوم الديني.ويذكر الدكتور صبحي الصالح في كتابه المهم: (مباحث في علوم القرآن) ط٦/ بيروت١٩٦٩ بأن العلوم القرآنية هي: علم التفسير/ علم اسباب النزول/ علم المكي والمدني/ علم الناسخ والمنسوخ/علم غريب القرآن، وقد نشأت علوم جديدة مثل: بدائع القرآن/حجج القرآن/ اقسام القرآن. وقد توجب اختصار تلك العلوم في علم جديد موحد اسمه "علوم القرآن".

ان الضجيج الذي ينطلق من اذهان اهل الاعجاز العلمي يعطيهم - وهذا امر شديد الاهمية- الوهم بانهم يستطيعون ان يفهموا العالم وهم يفهموه فعلاً!! لذا نؤكد بان الاعجاز العلمي ليس علماً خاطئاً لانه قبل كل شيء ليس علماً انما هو صناعة خائبة لاتنتج سوى الوهم، ولا تزدهر ولا تنتعش مثل هذه الصناعة الفتاكة الا بين المجتمعات التي تعزف عن القراءة والكتابة حيث تنتشر الامية بين اكثر من نصف السكان البالغين في البلدان الاسلامية بل قد تصل الى ٧٠ ٪ بين النساء وتشير الاحصائيات بان معدل قراءة الفرد في العالم الاسلامي على مستوى العالم هو ربع صفحة بينما معدل قراءة الامريكي ١١ كتاب والبريطاني ٧ كتاب. وتقدر الاحصائيات ان متوسط قراءة الفرد في هذا العالم، مقارنة بالقارئ العالمي لا تتجاوز النصف ساعة سنوياً واكثر الكتب رواجاً بين اوساط الناس هي كتب قراءة الفنجان والابراج والبحث عن الطالع!! لذا ليس من الغريب ان تجد برامج وكتب صناعة الوهم هي الاخرى رواجها بين ناس اتعبهم البحث عن اللقمة وسلبت اراداتهم وعقولهم سلطة الحكم وسلطة الوهم.